الآداب العربيّة

في الربع الاول من القرن العشرين

الحقبة الثانية (١٩٠٨—١٩١٨)

للاب لويس شيخو اليسوعي (تابع)

ادباء الشام المشهورون

﴿الشيخ حسين الجسر﴾ توفي هذا العالم الاديب في ١٣ رجب ١٣٢٧ (٢٩ تموز ١٩٠٩) كان احد مشاهير اعلام طرابلس الشام ولد فيها سنة ١٢٦١ (١٨٤٥م) وتخرّج على ادباء وطنه ثمّ على اساتذة الازهر . وأبى عاد الى طرابلس درس العلوم العصريّة ثمّ قضى عمره في التأليف والتصنيف والنثر والنظم ودرّس عدّة سنين في المدرسة الوطنيّة فاخذ عنهُ كثيرون من ادبائها ثمّ اصدر جريدة طرابلس فحرّرها زمناً طويلاً . لهُ ما خلا بعض التآليف الدينيّة كتاب في مناقب والده الشيخ محمّد الجسر ومجموعة ادبيّة في عدّة مجلّدات سمّاها رياض طرابلس الشام ثمّ رسائل ادبيّة وسياسيّة ومنظومات في التربية . وممّا لم يُطبع كتاب الكواكب الدرّية في الفنون الادبيّة . رثاهُ صاحب الرغائب حكمت شريف بقصيدة اوّلها :

خَطْبَ الحُسَين أرى ام جسرُنا انتقضا ام طَوْدُ علم لجنّات النعيم مضى
ارّاهُ من زمنٍ قد دكّ جِسْرَ تُقىً وهدّ ركناً من الآداب حين قضى

وفي العام الثاني في تشرين الاوّل سنة ١٩١٠ اصابت المنون ﴿صادق باشا العظم﴾ من وجوه دمشق الشام . تلقّى العلوم في وطنه ثمّ درّس مدّة في كليّتنا اليسوعيّة . وقف نفسهُ في إثرها لخدمة الدولة العثمانيّة فترقّى في مناصبها العسكريّة بصفة ضابط الى امارة لواء وقول اغاسي . ثمّ انتدبتهُ الحكومة لمهمّات عند الشيخ السنوسي وأرسل معتمداً عثمانيّاً الى عاصمة البلغار . ولمّا قصدت الدولة ان تنشئ بينها

وبين ملك الحبشة منليك علائق ودّية ارسلتهُ كرئيس وفدٍ فكتب تفاصيل رحلته ونشرها بالطبع وألّف ايضاً تاريخ دفاع باثنا ولهُ رحلة الى الصحراء وادبيّات شتى تركيّة وعربيّة . وحرّر مع ابن عمهِ رفيق بك العظم بالعربيّة والتركيّة جريدة الشورى العثمانيّة ارجبت فرارَهُ من الاستانة الى القطر المصري فعلّم زمناً في المدرسة التوفيقيّة ثمّ عاد الى الوطن بعد اعلان الدستور فما لبث ان ودّع الحياة

وفي سنة وفاة صادق بك العظم توفي الكاتب النحرير ﴿ الشيخ ابو حسن الكستي ﴾ وقد سبقت ترجمتهُ في القسم الثاني من كتابنا الآداب العربيّة في القرن التاسع عشر (ص ٧٩ — ٨١) ذكرناهُ مع رصيفَيهِ الشيخين يوسف الاسير وابرهيم الاحدب وقد جعلنا هناك وفاتهُ سنة ١٩٠٩ والصواب ١٩١٠

ومِمَّن عظم على الادباء نعيُهُ سنة ١٩١١ ﴿ السيّد حسين وصفي رضا ﴾ شقيق السيّد محمّد رشيد رضا صاحب مجلّة المنار المولود في اوائل سنة ١٨٨٢ مات في تمام شبابهِ وكان درس على علماء وطنهِ مشايخ الازهر العلوم الدينيّة والادبيّة وبرع في الكتابة فشارك اخاهُ في تحرير المنار وفي اصلاح امور الاسلام

وفي ٢٥ تموز سنة ١٩١٣ فُجعت فلسطين باحد رجالها المعدودين ﴿ روحي بك الخالدي ﴾ سليل أسرة قديمة في القدس الشريف كان والدهُ سنة ١٨٦٤ وتلقّى مبادئ العلوم في وطنهِ ثم في نابلس وطرابلس وفي المدرسة السلطانيّة في بيروت ثمّ انكبّ على الدروس الفلسفيّة والحقوقيّة والسياسيّة في الاستانة وفي باريس حيث اجتمع بعلماء الفرنج فعرفوا قدرهُ . وانتدبهُ الفرنسويون الى التعليم في مدرسة اللغات الاجنبية في باريس وكان احد اعضاء مؤتمر المستشرقين فيها سنة ١٨٩٧ . ثم اختارتهُ الدولة التركية كقنصلها في مدينة بردو عدّة سنين فاطّلع على احوال الفرنسويين وآدابهم . وألّف وقتئذٍ كتابهُ علم الادب عند الفرنج والعرب . ولمّا حدث الانقلاب العثماني سنة ١٩٠٨ انتخبهُ مواطنوهُ نائبهم القدس الشريف وقُلّد بين وصفائهِ وظيفة الرئيس الثاني لمجلس النوّاب وبعد انحلال المجلس عاد الى القدس ثمّ كرّ راجعاً الى الاستانة وفيها توفي بالحمّى التيفوئيديّة وهو في الخمسين من عمرهِ . وكان روحي الخالدي كاتباً بارعاً لهُ عدّة مقالات ومحاضرات ورسائل متفرّقة نشرها في صحف مختلفة . ومن آثارهِ تاريخ الانقلاب العثماني وكتاب العالم الاسلامي . ولهُ ايضاً رحلة

الى الاندلس ذكر فيها بقايا آثار العرب لم تُطبع

وفي السنة التالية ١٩١٤ فقد المسلمون رجلين من نخبة علمائهم ﴿السيد جمال الدين القاسمي﴾ ثم ﴿محي الدين الخياط﴾ عُرف الاوّل بتآليفه الدينيّة التي جعلته في مقدّمة علماء دمشق المعدودين. وقد امتاز عن كثيرين منهم باستقلاله عن النوافل والفضوليات وخلوّه من تضليل المُخرفين والمهرفين. ولم يكتفِ بالوقوف على اسرار الشريعة بل درس ايضاً العلوم العصريّة وبها ظهر فضل طريقته العلمية. وتمّا قالهُ جرجي افندي الحدّاد في رثائه :

نَمْ يا جمالَ الدين غير مُرَوَّعٍ انَّ الزمان بما ابتنيتَ كفيلُ
فستعرفُ الاجيالُ فضلَكَ في غدٍ ان كان لم يعرفهُ هذا الجيلُ

امّا الشيخ محي الدين الخياط فكان مولدهُ في صيداء سنة ١٨٧٥ وقدم الى بيروت فتعلّم في مدارسها واخذ عن الشيخين الكبيرين يوسف الاسير وابرهيم الاحدب ونبغ في الآداب حتى اصبح من خيرة ادباء المسلمين في بيروت. وكان ذا روح حرّة وله كتابات عديدة نثريّة ونظميّة في الصحائف البيروتية الاسلامية لاسيما ثمرات الفنون والإقبال. ومن فضلهِ على الناشئة عدّة تآليف وضعها للمدارس في البلاد العربية كدروس القراءة ودروس الصرف والنحو ودروس التاريخ الاسلامي ودروس الفقه. وقد فسّر تفسيراً خفيفاً الغريب من ديوانَيْ ابي تمّام وابن المعتزّ وله تعليق على شرح نهج البلاغة وعرّب رواية الوطن للكاتب التركي نامق كمال بك. توفي في نيسان ١٩١٤

وكانت السنة ١٩١٦ سنة مشئومة على الآداب العربية قُتل فيها ظلماً بامر جمال باشا وحزبه (الاتحاد والترقي) جملة من نخبة الكتبة واهل الادب نصارى ومسلمين . ونذكر هنا المسلمين منهم الذين تركوا آثاراً من اقلامهم . واخصّهم ﴿السيد عبد الحميد الزهراوي﴾ مولود حمص سنة ١٢٨٨ (١٨٧١) تنقّل في البلاد لطلب العلوم ونشأ حرّ الافكار دون تطرُّف ولا تذلُّل واصدر في وطنهِ جريدةَ المعلومات فلم يَرُق اساوبهُ في عين عبد الحميد فأبعده الى دمشق ثمّ الى حمص تحت المراقبة الى ان امكنهُ الفرار الى مصر سنة ١٩٠٢ فحرّر في المؤيد وفي الجريدة. ولما

وقع الانقلاب العثماني اختارهُ الحمصيُّون كبعوث مدينتهم الى الاستانة وعاين ما حدث هناك من القلاقل وعاد الى مصر فانشأ جريدة الحضارة. ورئس اخيرًا في باريس الوفد الطالب اللامركزيَّة فكان في المؤتمر المنعقد هناك بمثابة الدماغ من الجسد. وبفعله أوغر عليهِ جدود اهل دولته فاحتالوا عليهِ حتى ارجعوهُ الى بلادهِ وحكم عليهِ جمال باشا بالاعدام في دمشق في ٦ أيار سنة ١٩١٦. وكان الزهراوي لبنانًا وخطيبًا محنكًا. ولهُ شعر حسن. منهُ قولهُ:

ما انتَ يا انسانُ هل تدري دماغُك لِمْ شُعِرْ
دَعْ عنك دعوى واسمع قولًا مفيدًا مختصَرْ
الناس هاموا في الغرو ر وراجعون الى القرَرْ
ويرى بنو الانسانِ اقْسمُ خلاصةُ ما قُطِرْ
دعوى بما يَدَّعون ما يلقَوْن من تعبٍ وضرْ
فتسلَّ فيما اعلَمْتَ ان فكَّرتَ فيما قد حضرْ
واعبر على المنياس من ماضٍ الى ما يُنتظَرْ
واعلم بانَّ المفلحين يذي الحياةِ اولو البصرْ
والكون ظُرْفُ جواهرٍ والسرُّ فيهِ ما ظهرْ

وقُتل مثلهُ شنقًا في ذلك اليوم في بيروت اديب آخر ﴿عبد الغني العُرَيسي﴾ المولود سنة ١٨٩١ درس في مدارس بيروت وخصوصًا في المدرسة العثمانية لمؤسسها الشيخ عباس الازهري ثمَّ علَّم فيها سنتين. ثم انقطع الى الكتابة فاصدر جريدة المفيد أيَّد فيها النهضة العربية وأثار عليهِ غضب الاتراك حتى تسنَّى لجمال باشا ان يلقي عليه القبض فذهب ضحيَّة الاستبداد. ومن آثارهِ الادبية طبعهُ لديوان الطويراني ثمرة الحياة وتعريبهُ لكتاب البئين لبول دومر

وذهب معهُ ضحيَّة تلك النكبة ﴿الشيخ احمد طبَّارة﴾ احد ادباء بيروت ووجهائها. اصاب لهُ في الصحافة ذكرًا طيبًا فحرَّر في اول عهد الدستور جريدة الاصلاح فكان لها وقعٌ كبير في قلوب العرب السوريين. ثم انشأ جريدة الاتحاد العثماني فامتازت بحسن انشائها. وحضر في باريس المؤتمر العربي السوري وكان احد اعضائه العاملين فنقم عليهِ جمال باشا وذوروه فحُكم عليهِ بالاعدام

وفي السنة ١٩١٧ اختارت المنون احد ادباء الدروز ﴿محمد ابا عزّ الدين﴾ كان كاتب ضبط دائرة الحقوق الاستئنافيّة في جبل لبنان ثم تعيّن رئيساً لمحكمة الشوف. كان يُجيد الكتابة ويراسل الصحف السيّارة وله عدّة مقالات وقصائد أعرب فيها عن حسن ذوق ومعرفة بفنون الانشاء. نشرنا له مقالة مستجادة في المشرق ٢[١٨٩٩: ٥٣٦] تحت عنوان «شهيد العلم»

وفي تلك السنة ايضاً فقدت الاسرة الرافعيّة الشريفة ومدينة طرابلس رجلاً من اعيانها ﴿الشيخ محمّد كامل الرافعي﴾. اخذ العلوم الدينيّة والادبيّة عن علماء طرابلس ثمّ قصد مصر ودرس في الازهر. ولما عاد الى وطنه تولّى فيه تدريس العلوم الدينيّة وتخصّص بعلوم الدين الاسلامي. ومن مآثره الادبيّة شرحه لديوان اخيه الشاعر الكبير مصطفى صادق الرافعي في ثلثة اجزاء طُبع في مصر. وكان الشيخ محمد يعيش بعيشة الزهد لا يخفل بمعاشرة الكبار والذوات ويفضّل العزلة حتى انه ردّ زيارة متصرّف طرابلس التركي فلم يقبله في بيته

وفي اوائل السنة ١٩١٨ قبل نهاية الحرب الكونيّة باشهر علمنا بالاسف وفاة احد شيوخ دمشق الافاضل ﴿الشيخ عبد الرزّاق البيطار﴾ المولود سنة ١٨٣٧. وكنّا اجتمعنا به غير مرّة وعرفنا فضلهُ الواسع وسعة معارفه وطول باعه في التاريخ والموسيقى وفنون الادب. خلّف آثارًا حسنة في الموضوعات الدينيّة والصوفيّة والتاريخيّة. له كتاب نفيس دعاهُ حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر. وقد أدّت بالشيخ معارفهُ الى انهُ تحرّر من قيود التقييد ونبذ كثيرًا ممّا كشفت لهُ العلوم الحديثة بطلانهُ

وتبعهُ بعد قليل الى القبر في ذات السنة اديب من اهل بيروت المسلمين ﴿بشير رمضان﴾ صاحب مجلّة الكوثر انشأها بعد الاعلان بالدستور سنة ١٩٠٩ واودعها عدّة فصول ومقالات حسنة. قد حرّر مدّة في مطبعة الولاية ومن آثاره منتخبات شعرية وقصائد من نظمه

ادباء المسلمين في العراق والهند

اجاب الى دعوة ربه في هذه الحقبة الثانية رجل من ادباء العراق نعتّهُ ناشر

ديوانهِ «باشعر شعراء الشرق امس واكبر علماء اليوم» نعني بهِ السيّد ﴿محمد سعيد حبوبي الحسني﴾ احد علماء الشيعة. كان مولدهُ في النجف ونشأ بين اسرتهِ في بلاد نجد ثم عاد الى وطنهِ وتعاطى الكتابة ونظم الشعر فعُدَّ من زعماء النهضة الادبيَّة في العراق ومات في الناصريَّة قرب النجف بعد ان دعا مواطنيهِ الى الدفاع عن الوطن بالجهاد في ٢ شعبان ١٣٣٣ (ايار ١٩١٦م). وشعرهُ فطري رقيق يجمع بين السهولة والمتانة ولهُ موشحات بديعة جارى فيها موشحات الاندلسيين. وقد طُبع ديوانهُ في بيروت في المطبعة الاهليَّة سنة ١٣٣١. ودونك مثالًا من شعرهِ يرثي بعض الاعاظم:

ألا ايها النادي وليتكَ سامعٌ ... اذا ما دعا الداعي ألا ايها النادي
بودّيَ لو تدنو فتسمعَ لوعتي ... عليك ولو تُصغي فتسمعَ انشادي
قضيتَ وما عهدُ الدموع بمُنقضٍ ... وثار الجوى يشوي الضلوعَ بايقادِ
كأنَّ ندى كفّيكَ عاد لأعينٍ ... ونارَ قراك اليوم عادت لاكبادِ
فيا عبرتَيْ عينَيَّ جودا فنيكما ... اذا لم تساعدني الاحبَّةُ إسعادي
ويا أيها اللاحي رويدكَ لاحيًا ... فانَّك في وادٍ وانيَ في وادِ
ولو قد عرفتَ الحبَّ معرفتي بهِ ... لأقصرتَ إقصاري وأنجدتَ إنجادي

وصرعت المنون في الهند في هذه الحقبة احد معالم المسلمين ﴿الشيخ شبلي النعماني﴾ توفّاهُ الله بعد اعلان الحرب الكونيَّة بقليل (١٨ ت٢ ١٩١٤) تعلَّمَ العلوم وساح في البلاد الاسلاميَّة فدرس الطباع واطّلع على احوال العصر. ولمَّا عاد الى وطنهِ عُهد اليهِ التعليم في كليَّة عليكده فعُدَّ من كبار علماء بلاده وكان يعرف الهنديَّة والفارسيَّة والعربيَّة يحسنها كلَّها. وقد تخصَّص في وطنهِ لاصلاح المسلمين في الهند. ولهُ مصنَّفات مشكورة في الفلسفة والتاريخ وآداب اللغتين الفارسيَّة والهنديَّة. ومن تاليفهِ في العربيَّة تاريخ الخليفة عمر بن الخطَّاب كتبها على صورة عصريَّة. ولهُ ردٌّ على كتاب المرحوم جرجي زيدان تاريخ التمدُّن الاسلامي. ورسالة في الجزية وكان يشتغل قبل موتهِ بسيرة رسول الاسلام. توفي عن ٦٥ سنة

وفي السنة ١٩١٧ توفي في تونس احد ادبائها المسلمين ﴿علي ابو شوشة﴾ صاحب جريدتها الرسميَّة المعروفة بالرائد التونسي وهي اوَّل جريدة ظهرت هناك سنة ١٨٦١

(لهُ تابع)